# باب المقالات

## ماضي الامة وحاضرها وعلاج علتها

(نشرت في العدد الثالث من العروة الوثقى بالعنوان الآتي) (١)

سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسنة الله تبديلاً

أرأيت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ثم انشق عنها عماء العدم فاذا هي بحمية كل واحد منها كون بديع النظام قوي الاركان شديد البنيان عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم تخمد في ساحاتها عاصفات النوازل وتنحل بأيدي مدبريها عقد المشاكل نمت فيها افنان العزة بعد ما ثبتت أصولها ورسخت جذورها وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني اليها ونفذت منها الشوكة وعلت لها الكلمة وكملت القوة فاستعلت آدابها على الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها وأحست مشاعر سواها من الامم بان لا سعادة الا في انتهاج منهجها وورود شريعتها وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل

وبعد هذا كله وهي بناؤها وانتثر منظومها وتفرقت فيها الاهواء وانشقت العصا وتبدد ما كان مجتمعاً وانحل ما كان منعقداً وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية وهو في غيبة عن ان ضروريات حاجاته لا تنال الا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الامة وأنه أحوج الى شد عضدهم من تقوية ساعده والى

(١) نشرنا هذه المقالة في المجلد الأول من المنار ونعيد نشرها الآن لما فيها من التذكير الذي يجب أن لا ينسى والعنوان لنا

توفير خيرهم من تنمية رزقه وكانه بهذه الغيبة في سبات يخيله الناظر اليه صحوا وذبول يظنه المغرور زهوا وأخذ القنوط بآمال اولئك المدهوشين فأبادها وحدثت فيهم قناعة البهم والرضا بكل حال ولئن تنبه خاطر الحق في خيال احدهم او استفزه داع من قلبه الى ما يكسب ملته شرفا او يعيد لها مجدا عده هوسا وهذيانا أصيب به من ضعف في المزاج او خلل في البنية اوحسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال وأورده موارد الهلكة او لصار من اقرب الاسباب لزوال نعمته ونكد معيشته ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس فتغل يداه عن العمل وتقف قدماه عن السعي ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه ويقصر نظره عن درك ما اتى اسلافه من قبله وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا وقيما على ما أورثوه لاعقابهم ويبلغ هذا المرض من الامة حدا يشرف بها على الهلاك ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد وطعمة لكل طاعم .

نعم رأيت كثيرا من الامم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذلت، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى وا أسفا ما أصعب الداء وما اعز الدواء . وما اقل العارفين بطرق العلاج كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفترق الا لأن كلا عكف على شأنه . . . استغفر الله ، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن اخيه وهو أشد اعضائه اتصالا به ولكنه صرف الشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه نعم ربما التفت كل الى ما هو فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه وهو لا يدري من أي وجه يحصلها ولا بأية طريقة يكون في أمن عليها . كيف تبعث الهمم بعد موتها وما ماتت الا بعد ما سكنت زمانا غير قصير الى ما ليس من مآليها ؟ هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم وهو يعتقد ان الفوز في سلوك سواه خصوصا بعد ما استدبر المقصد وفي كل خطوة يظن انه على مقربة من المظنوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه المبتهج بأحلامه وفي اذنه وقر في ملامسه خدر؟ هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة

تتباعد أنحاؤها وتتنادى أطرافها وتتباين عاداتها وطباعها؟هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة بعدما ترا كم جهل ورانغين وخبل المقول ان كل قريب بعيد وكل سهل وعر؟ أيم الله انه لشيء عسير يعيا في علاجه النطاسي ويحار فيه الحكيم البصير. هل يمكن تعيين الدواء الا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى والعوارض التي طرأت عليه؟ان كان المرض في أمة فكيف يمكن الوصول الى علله وأسبابه الا بعد معرفة عمرها وما اعتراها فيه من تنقل الاحوال وتنوع الاطوار؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصا بعينه أن يختار له نوعا من العلاج قبل ان يعرف ما عرض له من قبل في حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض؟ والا فان كثيرا من الامراض تتولد جراثيمها في طور من أطوار العمر ثم لاتظهر الا في طور آخر لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها.

كلا انه ليصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنو عمره محدودة وعوارض حياته محصورة فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل وافرة العدد؟ لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون باحياء أمة أو ارجاع شرفها ومجدها اليها وان كان المتشبهون بهم كثيرين. وكان المتطبب القاصر في الامراض البدنية لايزيد علاجه المرض الا شدة لولا مساعدة الاتفاق والصدفة بل ربما يفضي بالمريض الى الموت كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الامم على غير خبرة تامة بشأنها وموجب اعتلالها ووجوه العلة فيها وأنواعها وما يكتنف ذلك من العادات وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الارض ومكانتها الاولى من الرفعة ودرجتها الحالية من الضعة وتدرجها فيما بين المنزلتين فان أخطأ طالب اصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء والوجود فناء. فمن له حظ من الكمال الانساني ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهي لايجرأ على القيام بما يسمونه تربية الامم واصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الامر العظيم علما أو عملا. نعم يكون ذلك من محبي الفخفخة الباطلة وطلاب العيش في ظل وغاشف ليسوا من حقوقها في شيء

ظن أقوام في هذه الازمان ان أمراض الامم تعالج بنشر الجرائد وأنها تكفل انهاض الهمم وتنبيه الافكار وتقويم الاخلاق كيف يصدق هذا الظن وإنا لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون الا انجاح الامم مع التنزه عن الاغراض فبعد ماعم الذهول واستولت الدهشة على العقول وقل القارئون والكاتبون لا تجد لها قارئا ولئن وجدت القاري فقلما تجد الفاهم والفاهم قد يحمل مايجده على غير مايراد منه لضيق في التصور أو ميل مع الهوى فلا يكون منه الا سوء التأثير فيشبه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر اضعافا . على ان الهمة اذا كانت في درك الهبوط فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع مافيها مع قصر المدة وتدفق سيول الحوادث؟ ان هذا وحقك امر يزن

و يظن أقوام آخرون ان الامة المنبثة في أقطار واسعة من الارض مع تفرق أهوائها واخلادها الى مادون رتبتها بدرجات لا تحصر ورضاها بالدون من العيش والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا مشربها بل لمن كان خاضعا لسيادتها راضخا لاحكامها مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الامراض القاتلة بانشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوربا حتى تعم المعارف جميع الافراد في زمن قريب ومتى عمت المعارف كملت الاخلاق واتحدت الكلمة واجتمعت القوة . وما أبعد مايظنون فان هذا العمل العظيم انما يقوم به سلطان قوي قاهر يحمل الامة على ماتكره ازمانا حتى تذوق لذته وتجني ثمرته ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائبا عن سلطته في تنفيذ ما أراد من خيرها ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة وموضوع كلامنا في الضعف وداوئه فهل مع الضعف سلطة تقهر وثروة تفي ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين . فان قالوا يمكن التدريج مع الاستمرار والثبات واقناهم على الامكان لولا مايكون من طمع الاقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلا لان يستنشقوا نسيم القوة فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الاثر . على أنا لو فرضنا مسالمة الدهر ومنحت الامة مدة من الزمان

تكفي لبث تلك العلوم في بعض الافراد والاستزادة منها شيأ فشيأ فها يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية وان مايصيبه البعض منها يعبوه الكمال اللائق به ويمكنه من القيام بارشاد الباقي من أبناء امته واعجبا كيف يكون هذا وان الامة في بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها وكيف بذرت بذورها وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت و بأي ماء سقيت و بأي تربة غذيت ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات وان وصل اليها طرف من ذلك فانما يكون ظاهرا من القول لاانبأ عن الحقيقة فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الافراد بها وسوقها الى اذهانهم المشحونة بغيرها يقوّم من أفكارهم ويعدل من اخلاقهم ويهديهم طرق الرشاد في افادة اخوانهم. لعل الاقرب ان ناقلي تلك العلوم وهم من امة هذا شأنها مع ماينعكس اليوم من الاوهام المألوفة فيها وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا وما يعظمونه من أمر الامة التي تلقوا عنها علومهم يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طباعها الا فسادا.

ماذا يكون من أولئك الناشئين في علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ولو صدقوا في خدمة أوطانهم ؟ يكون منهم ما تطلبه حالهم يؤدون ما تعلموه كما سمعوه لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الامة وطباعها وما مرنت عليه من عاداتها فيستعملونه على غير وضعه ولبعدهم عن أصله ولهوهم بحاضره عن ماضيه وغفلتهم عن آتيه يظنونه على مابلغهم هو الكمال لكل نفس والحياة لكل روح فيرومون من الصغير مالا يرام الا من الكبير و بالعكس غير ناظرين الا الى صور ما تعلموه ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طباعهم مكان يحمد أو يزيدها على ما بها أضعافا وما هذا الا لكونهم ليسوا أربابها وانما هم لها نقلة وحملة. فهؤلاء الصادقون الا من وفقه الله منهم بعنايته الالهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلذ لها غذاء فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها في اللذة وسنه سن اللبان لا يقبل سواه فيسرع اليه المرض وينتهي به الى التلف فتكون منزلتهم من الامة منزلة الآلة المحللة يشتتون بقية الجمع و يبددون أخريات الالتئام ان كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط

فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها وما قصدوا الاخيرا ان كانوا مخلصين ويوسعون بذلك المخاص (الخرق في باب ونحوه) حتى تعود أبرابا ويباعدون مابين الضفاف حتى تصير ميادين لتداخل الاجانب تحت اسم الاصحاء وعنوان المصلحين ويذهبون بأمتهم الى الفناء والاضمحلال وبئس المصير.

شيد العثمانيون والمصريون عددا من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا اليهم مايحتاجون له من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل مايسمونه تمدناً وهو في الحقيقة تمدن البلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الانساني. هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم ازمان غير قصيرة. هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا السبيل الجديد. هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة هل نجوا بها من ورطات مايلجئهم اليه الاجانب بتصرفاتهم. هل أحكموا المصون وسدوا الثغور؟ هل نالوا بها من المنعة مايدفع عنهم غارة الأعداء عليهم؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الافكار حدا يميل عزائم الطامعين عنهم؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية فهي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها وان تجاوزت محيط الحياة الدنيا وان بادت في سبيلها خلفها وراث على شاكلتها كما كان في كثير من الامم؟

نعم ربما يوجد بينهم افراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ويصوغونها في عبارات متقطعة بتراء لاتعرف غايتها ولا تعلم بدايتها ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد ومنهم آخرون عمدوا الى العمل بما وصل اليهم من العلم فقلبوا أوضاع المباني والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الملاعون وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الاجنبية وعدوها من مفاخرهم وعرضوها معرض المباهاة فسفوا بذلك ثروتهم الى غير بلادهم واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره فأماتوا أرباب الصنائع من قومهم وأهلكوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم ان يقوموا بكل مايستدعيه تلك العلوم

الجديدة والكماليات العديدة لأن معاشهم لم تتحول الى الطرز الجديد وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد وثروتهم لا تسمح بجلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة وهذا جدع لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هذا الا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها . . .

علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المتحلين اطوار غيرها يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الاعداء اليها وتكون مدارکهم مهابط الوساوس ومخازن الدسائس بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم واحتقار من لم يكن على مثالهم شؤماً على أبناء أمتهم يذلونهم ويحقرون أمرهم ويستهينون بجميع أعمالهم وان جلت وان بقي في بعض رجال الأمة بقية من الشمم أو نزوع الى معالي الهمم انصبوا عليه وأرغموا من أنفه حتى يمحى أثر الشهامة وتخمد حرارة الغيرة ويصير اولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطتهم ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون ان قوة تغالب قواهم .

أقول ولا أخشى لوما لو كان في البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الطلائع عند ما تغلب على بعض أراضيها الانكليز لما بارحوها أبد الآبدين . فان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست الا توطيد المسالك والركون الى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم فيالذون في تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزيلون الوحشة التي قد يعمون بها الناس حقوقهم ويحفظون بها استقلالهم ولهذا لو طرق الاجانب أرضا لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدومهم ويكونون بطانة لهم ومواضع ثقتهم كأنما هم منهم ويعدون الغلبة الاجنبية في بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم .

فما الحيلة وما الوسيلة والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها والوقت ضيق والخطب شديد ؟ أي جهوري من الاصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات ؟ أي قصفة تزعج الطباع الجامدة وتحرك الافكار الخامدة ؟ أي نفخة تبعث هذه

الأرواح في أجسادها ، وتحشرها الى مواقف صلاحها وفلاحها ؟ الاقطار فسيحة الجوانب ، بعيدة المناكب : المواصلات عسرة بين الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي ، الرؤوس مطرقة الى ما تحت القدم أو منفضة الى ما فوق السماء ، ليس للابصار جولان الى الأمام والخلف واليمين والشمال ولا للأسماع إصغاء ولا للنفوس رغبات وللاهواء تحكم والوساوس سلطان .... ما ذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير ؟ ماذا يحاولون ولا خطار محدقة بهم ؟ بأي سبب يتمسكون ورسل المنايا على أبوابهم ؟

لا أطيل عليك بحثا ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان ولكني أستلفت نظرك الى سبب يجمع الاسباب ووسيلة تحيط بالوسائل أرسل طرفك الى نشأة الأمة التي خلت بعد النباهة وضعفت بعد القوة وافترقت بعد السيادة وضيمت بعد المنعة وتبين أسباب نهوضها الأول حتى تتبين مضارب الخلل وجراثيم العلل فقد يكون ما جمع كلمتها وأنهض هممآحادها ولحم ما بين أفرادها وصعد بها الى مكانة تشرف منها على رؤوس الأمم وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها انما هو دين قويم الأصول محكم القواعد شامل لأنواع الحكم باعث على الألفة داع الى المحبة مزك للنفوس مطهر للقلوب من أدران الخسائس منور للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه كافل لكل ما يحتاج اليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية وحافظ وجودها وينادي بمعتقديه الى جميع فروع المدنية . فان كانت هذه شرعتها ولها وردت وعنها صدرت فما تراه من عارض خللها وهبوطها عن مكانتها انما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا وحدوث بدع ليست منها في شيء اقامها المعتقدون مقام الاصول الثابتة وأعرضوا عما يرشد اليه الدين وعما أتى لأجله وما أعدته الحكمة الإلهية له حتى لم يبق منه الا أسماء تذكر وعبارات تقرأ فتكون هذه المحدثات حجابا بين الامة وبين الحق الذي تشعر بنداه أحيانا بين جوانحها .... فعلاجها الناجع انما يكون برجوعها الى قواعد دينها والاخذ بأحكامه على ما كان في بدايته وبارشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الاخلاق وايقاد نيران

الغيرة وجمع الكلمة وبيع الارواح لشرف الامة ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة والقلوب مطمئنة اليه وفي زواياها نور خفي من محبته فلا يحتاج القائم باحياء الامة الا الى نفخة واحدة يسري نفثها في جميع الارواح لأقرب وقت فاذا قاموا لشؤنهم ووضعوا اقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم فلا يعجزهم بعد ان يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانساني .... ومن طلب اصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططاً وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الامة الا نحساً، ولا يكسبها الا تعساً ،

هل تعجب أيها القارىء من قولي ان الاصول الدينية الحقة المبرأة عن محدثات البدع تنشئ للأمم قوة الاتحاد وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهي بها الى أقصى غاية في المدنية ؟ ان عجبت فان عجبي من عجبك أشد . هل نسيت تاريخ الامة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات وإتيان الدنايا والمنكرات حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ونور عقولها وقوم أخلاقها وسدد أحكامها فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف وبعد ان كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا الى بلادهم طب بقراط وجالينوس وهندسة أقليدس وهيئة بطليموس وحكمة أفلاطون وأرسطو وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا وكل أمة سادت تحت هذا اللواء انما كانت قوتها ومدنيتها في التمسك بأصول دينها ....

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك وافتتاح الاقطار وطلب السيادة على الأمصار وتلك الدعوة انما تستدعيه من عظم الهمم وارتفاع النفوس عن الدنايا وبعد الغايات وعلو المقاصد هي التي هذبت أخلاقهم وقومت أفكارهم وكفتهم عن معاطاة الرذائل وخسائس الامور وسوافلها ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها . فبيان أسباب الخلل فيها وعلاته نفرد له فصلا مستقلا في عدد آخر ان شاء الله وهو الموفق للصواب